

القيم الأخلاقية في شعر المخضرمين "الكرم نموذجاً"

أ . د . عدنان محمد أحمد - سوريا

مقدمة:

يفترض هذا البحث أن الكشف عن تجليات القيم الأخلاقية في شعر المخضرمين هو كشف عن المثل الأعلى الأخلاقي للمجتمع العربي في صدر الإسلام ، قبل أن يكون كشفاً عن تفاعل الشاعر مع الفكر الجديد ، بالنظر إلى أن الشاعر يراعي في إبداعه أفق توقع المتلقي بصفته الطرف الذي يمنح النصّ التحقق بتفاعله معه . إنه كشف عن المعيار الأخلاقي لمجتمع يعيش قلق الانتقال من ماضٍ إلى حاضر ، ومن شأنه أن يسهم في فهم كثير من المشكلات التي واجهها ذلك المجتمع .

لذلك لن يُعنى الباحث بتتبع الآثار الإسلامية المتمثلة بوجود ألفاظ وتراكيب إسلامية ، جرت عادة الباحثين ، في شعر صدر الإسلام ، على تتبعها لإثبات الأثر الإسلامي في شعر ذلك العصر . إذ يرى أن التأثير الحقيقي هو التأثير بالقيم ، لأن القيم قواعد سلوك ، ومنهاج عمل .

ولا بدّ من الإشارة إلى أن للقيم الأخلاقية -كغيرها من القيم- قطبين؛ إيجابي وسلبي ، ولكن لأنّ "الأخلاقي" هو ما يتفق مع قواعد السلوك المقررة في المجتمع ، فإننا لن نتحدث عن القيم السلبية التي تخالف تلك القواعد ، خارجة بذلك عن إطار ما هو "أخلاقي" .

تعريف القيمة الأخلاقية:

تعرف "القيمة الأخلاقية" بأنها "ما يجب فعله"^١ ، وهذا يعني أنها "قيمة الفعل" . وتعرف أيضاً بأنها "قيمة الإرادة" ، كما أن الحقيقة هي قيمة المعرفة ، والجمال قيمة التخيل ، والحب قيمة القلب"^٢ . وهي تعدّ "قيمة القيم" ، ما دامت ينظر إليها على أنها ذات مشتركة بين القيم جميعاً ، وما دامت ، كذلك ، الشرط الذي بدونه لا يمكن طرح قيمة أخرى"^٣ . فالقيم الأخلاقية تاج القيم ، لأن الإنسان يسمو بها على الطبيعة ليغيرها ، أو يتحرر من أسرها .^٤

والقيم الأخلاقية العربية هي مجموعة القيم المعبر عنها بـ"مكارم الأخلاق" كالكرم ، والشجاعة ، والوفاء ، وإغاثة الملهوف ، والصدق ... وغير ذلك كثير . وهي قيم يتميز بعضها عن بعض "ولكن بعضها يتصل ببعض اتصالاً وثيقاً يتيح لنا أن ندعوها باسم القيم الأخلاقية"^٥ . إنها قيم تفرض قاعدة سلوك ، وترجع إلى مثل أعلى من الكمال هو نمطها العريق . وقلنا "تفرض قاعدة سلوك" لا يعني أن كل فرد في المجتمع يتصرف بموجب ما تمليه القاعدة ، بل يعني أن الرأي الاجتماعي العام يحكم وفقاً لهذه القاعدة . أما الأفراد فكلّ منهم يعبر عن التزامه بطريقته الخاصة ، ووفقاً لما يجد في نفسه من صدى للقاعدة .

منظومة القيم الإسلامية:

عاش المجتمع العربي قبل الإسلام في ظلال منظومة من القيم الملائمة لطبيعة حياته ، كانت تنمو وتتطور تبعاً لتطور الحاجات والظروف المحيطة به . وهي منظومة تضمنتها سلمٌ قيمى تسلسلي أقيم وفق أوامر

متطلبات الحياة الآمنة . فتلك المتطلبات هي التي خلقت القيم ، وهي التي حددت أشكالها ومضامينها . ولذلك كانت القيم شديدة الارتباط بالواقع . وكانت المعيار الذي ينظر من خلاله المرء إلى نفسه وإلى العالم من حوله ، فيقيّم مشاعره واهتماماته ، وحاجاته وأفعاله وغاياته
فإغراءات تلك القيم تنبع من إحياءاتها بالقدرة على تحقيق تلك المتطلبات . وجاء الإسلام حاملاً معه فهماً جديداً للعالم والإنسان ، فلم تعد منظومة القيم الجاهلية ، صالحة لتمثيل الغايات التي يتطلع إليها . غير أنها كانت تتضمن قيماً لا زمانية ، يمكن استثمارها والإفادة منها بعد ربطها بالروحي ، وتحديد موقع جديد لها في المنظومة الجديدة . ولذلك لم يسع الإسلام لنسف تلك المنظومة برمتها ، بل عمل على إتمامها . وقد أعلن الرسول الكريم ﷺ ذلك بقوله: "إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق" ، أو "لأتمم حسن الخلق"^١ ، وإتمام تلك المكارم لم يكن يعني إضافة قيم أو إلغاء قيم ، بقدر ما كان يعني تعديلاً في مفهوم القيم القديمة لتكون منسجمة مع الفكر الجديد ، وقادرة على أن تكون صلة وصل مناسبة بين النظر والعمل الدينيين . وهذا يعني أن التعديل كان يتضمن-أيضاً- منح تلك القيم صفة القداسة .

ومنظومة القيم الإسلامية مصدرها المطلق الذي هو "الله" ولذلك فهي تعلو في قيمتها على الاتفاق الجمعي . كما أنها تستمد قيمتها من روحانياتها ، بغض النظر عن المتطلبات التي يمكن أن تفي بها . إنها قيم مطلقة تمتاز بقدرتها على التجاوز ، بل وتمنح فاعلها القدرة على التجاوز بمده بأسباب النجاة من التغير الزمني . وتمثلها "إيمان" ، ولا يكون

الارتقاء إليه . إنه إيمان بشرط توفر "النّية" التي تعدّ شرطاً أساسياً لقبول العمل . فبالنّية تُقبل الأعمال ، أو تُردّ ، وعليها يُثاب المؤمن أو يُعاقب^٧ . ولذلك كان من الطبيعي أن يغدو الإيمان الصادق المميز الأول للنموذج الأخلاقي الإسلامي .

ولكي يتحقّق المجتمع الإسلامي المنشود ، المجتمع الذي تسوده المحبة ، نهى الإسلام عن القبلية بأطرها جميعاً ، وحذّر من العصبية القبلية بصفاتها عنصرًا هدامًا في المجتمع الجديد ، كما نهى عن التفاخر بالأنساب والأحساب^٨ ، ودعا إلى التواضع^٩ ، وجعل التفاضل بالتقوى^{١٠} ، وأوصى بحسن الجوار^{١١} ، ودعا إلى التعاون على البرّ والتقوى^{١٢} ، وإلى الصبر^{١٣} ، والتسامح^{١٤} ، والعدل والإحسان^{١٥} ، و . . . وباختصار دعا إلى كلّ ما من شأنه أن يحقق للإنسان حياة سامية تليق به بوصفه خليفة الله في الأرض ، وتمكّنه من الفوز بآخرة يكون مأواه فيها الجنّة . ونهى ، بالمقابل ، عن كلّ ما من شأنه أن ينزل بالإنسان عن المقام الرفيع الذي وضعه الله ﷻ به ، أو ما من شأنه أن يقف عائقاً في طريق سعادة ، وسعيه نحو غايته العظيمة .

تجليات القيم الأخلاقية في شعر المخضرمين:

وبداية ، يمكن أن ننظر إلى "الاستجابة للدعوة الإسلامية والإخلاص لها" بصفاتها "قيمة أخلاقية" لكونها الأساس الذي تقوم عليه منظومة القيم الجديدة ، وينتصب فوقه "النموذج الأخلاقي" الإسلامي . وبوسعنا القول إنها أول قيمة جديدة تطالعنا في شعر صدر الإسلام . وهي تتردد في أشعار شعراء الدعوة ، وأشعار الذين شاركوا في المراحل الأولى من بناء

تدولة . ومن الحق أن هذه "الاستجابة" قيمة دينية في المقام الأول ، ولكن من الحق أيضاً أن الفارق بين "الديني" و "الأخلاقي" في الإسلام قد ألغي . كما أنها - أعني الاستجابة- دلالة على سمو أخلاقي أتاح لأصحابه تلقي الفيض الروحي .

والاستجابة للدعوة لا تنفصل عن الإخلاص لها والدفاع عنها ، ولذلك فإن "الحرب" الإسلامية تكتسب قيمة أخلاقية/دينية بوصفها "جهاداً" ، وفعلاً تعبدياً يتجاوز بغاياته الأغراض الدنيوية ، إلى رفع قيم دينية/أخلاقية مثلى ، وهدم قيم أخلاقية سلبية . والشعراء المشاركون في مرحلة التأسيس لا يملّون من القول إنهم يقاتلون أعداء الله لإعلاء كلمة الله وليس لأية غاية أخرى . يقول كعب بن مالك^{١٦} :

نَقَاتِلْ مَعْشَرًا ظَلَمُوا وَعَقُّوا وَكَانُوا بِالْعَدَاوَةِ مُرْصِدِينَ
لِنَنْصُرَ أَحْمَدًا وَاللَّهُ حَتَّى نَكُونَ عِبَادَ صِدْقٍ مُخْلِصِينَ

ويمكن أن نلاحظ أن المشاركة في نشر الدعوة ، والدفاع عنها ، قد أضحت من ملامح النموذج الأخلاقي الإسلامي . وهي ملمح يرتبط بـ "الشجاعة" المعبر عنها بالإقدام في لوحات الحرب . وهذا ما يسوّغ لنا القول إن "الشجاعة" في لوحات الحرب/الجهاد هي قيمة إسلامية تختلف ، بدافعها وغايتها ، عن الشجاعة الجاهلية ، على الرغم من التشابه الشكلي بينهما في مقام التجلي . يقول كعب بن مالك^{١٧} :

إِذَا مَا نَحْنُ أَشْرَجْنَا عَلَيْهَا جِيَادَ الْجُدَلِ فِي الْأَرْبِ الشَّدَادِ^{١٨}
قَذَفْنَا فِي السَّوَابِغِ كُلِّ صَقْرٍ كَرِيمٍ غَيْرِ مُعْتَلِثِ الزِّنَادِ^{١٩}
يُغَشِّي هَامَةَ الْبَطْلِ الْمَذْكَى صَبِيَّ السَّيْفِ مُسْتَرْخِي النَّجَادِ^{٢٠}

لِنُظْهِرَ دِينَكَ اللَّهُمَّ إِنَّا بِكَفِّكَ فَاهِدِنَا سُبُلَ الرَّشَادِ
وبسمو الغاية يرتقي الموت في سبيلها ليغدو مطلبًا ، بوصفه تحقيقًا
لقيمة جديدة هي "الشهادة" ، وشاهدًا على إيمان صادق لا يعتريه الشك .
يقول عبد الله بن رواحة^{٢١}:

لَكُنْنِي أَسْأَلُ الرَّحْمَنَ مَغْفِرَةً وَضَرْبَةً ذَاتَ فَرْغٍ تَقْذِفُ الزَّبَدَا^{٢٢}
أَوْ طَعْنَةً بِيَدَيَّ حَرَّانَ مَجْهَزَةً بِحَرْبَةٍ تَنْقُذُ الْأَحْشَاءَ وَالْكَبَدَا^{٢٣}
حَتَّى يَقَالَ إِذَا مَرُّوا عَلَى جَدَّتِي أَرْشَدَهُ اللَّهُ مِنْ غَارٍ وَقَدْ رَشَدَا^{٢٤}

ومع أن الاستعداد للموت كان من ملامح النموذج الفارس في الشعر
الجاهلي^{٢٥} فإن ارتباطه بغاية روحية في شعر المخضرمين يمنحه معنى
أخلاقيًا/دينيًا جديدًا . على الرغم من أن الشعراء لم يكونوا قادرين -في
كل الأحيان- على الكشف عن هذا المعنى ، ولا سيما عند استعارتهم
للصيغة الجاهلية في التعبير عنه^{٢٦} .

فإذا تجاوزنا أحاديث الشعراء عن الجهاد ، وما يرتبط به من قيم ، إلى
أحاديثهم الأخرى ، طالعنا مجموعة من القيم يصعب تبين قساماتها
الإسلامية ، إذ إنها تتمظهر بالصورة نفسها التي كانت تتمظهر بها القيم
الجاهلية ، فلا يمكن تحديد هويتها الإسلامية إلا من خلال سياقها في
القصيدة . ويمكن أن نمثل لذلك بهذه الأبيات التي يفخر فيها حسان
بقومه^{٢٧}:

أَلَسْنَا بِحَلَالِينَ أَرْضَ عَدُونَا تَأَرَّ قَلِيلًا سَلَّ بَنَا فِي الْقَبَائِلِ
تَجِدْنَا سَبَقْنَا بِالْفِعَالِ وَبِالنَّدَى وَأَمْرٍ الْعَوَالِي فِي الْخُطُوبِ الْأَوَائِلِ
وَمِنْ خَيْرٍ حَيٍّ يُعَلِّمُونَ لِسَائِلِ غِيَاثًا وَعَانَ مُوثِقٍ بِالسَّلَاسِلِ

ومن خيرٍ حَيٍّ يُعَلِّمُونَ لِجَارِهِمْ إِذَا اخْتَارَهُمْ فِي الْأَمْنِ أَوْ فِي الزَّلَازِلِ
ومع أن الشاعر يفخر في آخر القصيدة بنصرة قومه للإسلام . فإن
الحديث عن القدرة على "احتلال" أرض الغير ، وربط "فك العاني" و
"حماية الجار" بقوة القوم ، وبدافع من الإحساس بالقوة والتفوق ، هو
حديث جاهلي . ولا ينفي جاهليته الفخر بنصرة الإسلام في آخر القصيدة ،
بل يمكن النظر إلى هذه "النصرة" على أنها استمرار لإنجازات القوة
الجاهلية التي يتحدث عنها ، وليست تعبيراً عن تفانٍ في نصره الدين ينبع
من إيمان عميق به .

وحتى لا تبدو الصورة قاتمةً أسرع إلى القول: إننا لانعدم وجود قيم
أخلاقية ذات محتوى إسلامي . فقلة وجود مثل هذه القيم لا يعني انتفاء
وجودها . ولعل قصيدة معن بن أوس المزني التي يتحدث فيها عن حلمه
على ابن عمه تقوم شاهداً مقبولاً على ذلك . فهو يستغرقها في الحديث
عن حلمه على ابن عمه الذي كان يسيء إليه ، ولا يصغي إلى صوت
الدين ، أو العقل ، أو القرابة والدم ، ولا يقدر عواقب ما يفعل ، . . . ولم
يكن الشاعر عاجزاً عن مواجهة ابن عمه بالقوة ، ولكنه ظل يتحلى
بالحلم ، اتقاءً لله وحرصاً على الرحم ، حتى انتزع ما في صدره من
ضغينة وغل . ولنستمع إلى أبيات من القصيدة^{٢٨}:

إِذَا سُمْتُهِ وَصَلَ الْقَرَابَةَ سَامَنِي	قَطِيعَتَهَا ، تِلْكَ السَّقَاهَةُ وَالْإِثْمُ
وَلِنْ أَدْعُهُ لِلنَّصْفِ يَأْبَ وَيَعْصِنِي	وَيَدْعُ لِحُكْمٍ جَائِرٍ غَيْرُهُ الْحُكْمُ
فَلَوْلَا اتِّقَاءُ اللَّهِ وَالرَّحِمِ الَّتِي	رِعَايَتُهَا حَقٌّ وَتَعْطِيلُهَا ظُلْمٌ
إِذَا لَعَلَّاهُ بَارِقِي وَخَطَمْتُهُ	بِوَسْمٍ شَنَارٍ لَا يُشَاكِلُهُ وَشَمٌ

فَمَا زِلْتُ فِي لَيْثِي لَهُ وَتَعَطَّفِي عَلَيْهِ كَمَا تَحْنُو عَلَى الْوَلَدِ الْأُمِّ
وَحَفْضِ لَهُ مِنْ الْجَنَاحِ تَأَلَّفَا لِنُدْنِيهِ مِنْ الْقَرَابَةِ وَالرَّحْمِ
لَأَسْأَلَنَّ مِنْهُ الضَّغْنَ حَتَّى اسْتَلَّتْهُ وَقَدْ كَانَ ذَا حَقْدٍ يَضِيقُ بِهِ الْحِلْمُ

ويمكن أن نخلص إلى القول: إن القيم الأخلاقية الجاهلية ظلت تخرج خطمها وعينيها في شعر المخضرمين ، وكانت تزامم القيم الأخلاقية الإسلامية مواقعها ، إلا في إطار الحديث عن الجهاد . ولم يستطع الشعراء -إلا نادراً- الكشف عن التغير الذي أحدثه الإسلام في القيم القديمة لتنسجم مع نظامه الفكري الجديد .

والحق أن هذا متوقع ، وليس مستغرباً . إذ ينبغي أن نتذكر أن جيل المخضرمين قد تلقى أنساقاً مفهومية جاهلية ، وتعلم كيف ترتبط مفاهيم كل نسق بالآخر وفق ثقافته الجاهلية . وكان من الصعب عليه في تلك المرحلة المبكرة ، التي لم تكن قد تأسست خلالها أنساق إسلامية متداولة ، أن يستخدم المفاهيم الإسلامية إلا وفق الأنساق الجاهلية التي تشكل نظامه الفكري وثقافته الفنية . وإذا كان قد استطاع أن يصدر ، في كثير من الأحيان ، عن رؤية إسلامية ، عند حديثه عن نصرة الدعوة ، فيخرج عن أنساقه الجاهلية قليلاً ، فلأن الجو الانفعالي الذي كان يسود الموقف سهل عليه ذلك ، ولاسيما أن الشعراء الذين تحدثوا عن الجهاد كانوا - باستثناء حسان بن ثابت - مجاهدين . وكان الاستعداد للجهاد يتطلب نشاطاً تعزيزياً يشجع على الجهاد ، ويبين أهميته ، وغايته ، وثوابه ، وغير ذلك . وكان القادة المسلمون يقومون بذلك قبيل المعارك ، وفي أثنائها . ومن شأن ذلك كله أن يترك أثراً في نفوس الشعراء ، وأن ينعكس بعض

هذا الأثر في أشعارهم . أما عند الحديث عن القيم الأخرى فكان من الصعب أن تتحدد الملامح الإسلامية للصور قبل أن تتأسس مكوناتها بوصفها واقعًا اجتماعيًا وثقافيًا مصادقًا عليه من قبل أبناء المجتمع الجديد .

قيمة الكرم في شعر المخضرمين:

تأسس اختيارنا لقيمة الكرم "تموذجًا" على كونها من أكثر القيم ظهورًا في شعر الجاهلية وصدر الإسلام ، وعلى كونها قد احتفظت بمقامها الرفيع في منظومتَي القيم في العصرين . وهذا كله يؤهلها لحمل ملامح أي تبدل قيمي مفترض ، ولا سيما أن ممارستها كانت تتم بعيدًا عن الانفعال الجمعي الذي كانت تمارس فيه القيم المتعلقة بالجهاد .

أ- الكرم في الإسلام:

والكرم يحظى بموقع رفيع في منظومة القيم الإسلامية ، من حيث هو فعل إيمانيّ تعبدي ، ومن حيث هو قيمة ملازمة للإيمان . وتتجلى رفعة هذه القيمة بشكل جليّ من خلال اقتران الإنفاق بإقامة الصلاة-التي هي عمود الدين- في أكثر من موضع من القرآن الكريم ، كما في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾^{٢٩} . بل لقد جاء الأمر بالإيمان مرتبطًا بالأمر بالإنفاق في قوله ﷺ: ﴿أَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنْفَقُوا مِمَّا جَعَلَكُمْ مُسْتَخْلَفِينَ فِيهِ﴾^{٣٠} .

فالملك لله ، والإنسان مستخلف في الملك ، وليس مالكًا على وجه الحقيقة . ومع ذلك ، فإن الله ﷻ ، بمنه وفضله ، وعد المنفقين بأجر كبير ، ولكن بشرط أن يكون الإنفاق في سبيله ، وابتغاء مرضاته ﷻ .

الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاةِ اللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أَكْثَلَهَا ضِغْقِينَ . . . ﴿٣١﴾ ، وألا يتبع هذا الإنفاق مَنْ ولا أذى^{٣٢} ، فلا يصح أن يكون الإنفاق للتبجح والفخر^{٣٣} ، كما أنه لا يقبل إن كان رياء^{٣٤} . كذلك لا يجوز أن يتجاوز الإنفاق الحد الذي تقتضيه الحاجة التي تتطلبه ، لأنه عندئذ ينقلب إلى تبذير أو إسراف ، وكلاهما يخرج به إلى منظومة القيم السلبية^{٣٥} .

وجاءت أحاديث الرسول ﷺ تؤكد على قيمة الكرم ومنزلته العظيمة ، حتى إنه ﷺ عرف الكرم مرة بأنه "التقوى":^{٣٦} ، وقال ﷺ أيضا: "إن الله كريم يحب الكرم . . ."^{٣٧} .

وكما اشتهر رجال بكرمهم في الجاهلية ، اشتهر رجال بكرمهم في الإسلام . يقول صاحب العقد الفريد: "وأما أجواد أهل الإسلام فأحد عشر رجلاً في عصر واحد لم يكن قبلهم ولا بعدهم مثلهم"^{٣٨} . ثم يذكر أسماءهم ، وبعض أخبار كرمهم . فقد حظيت هذه القيمة ، إذن ، بمكانة رفيعة على المستويين الديني والدنيوي ، بمكانة تسوّغ افتراض تجايلها بصورة واضحة في شعر المخضرمين .

ب- الكرم في الشعر:

فإذا بدأنا بتتبع أحاديث شعراء الدعوة (حسان ، كعب ، عبد الله بن رواحة) عن الكرم نلاحظ أنها لم تحظ إلا بقدر قليل من اهتمامهم . ليس في الأشعار التي قالوها خلال السنوات الأولى للدعوة ، عندما كانوا منشغلين بالدفاع عن الدعوة الجديدة والردّ على خصومها ، فحسب ، بل في مجموع أشعارهم التي قالوها في صدر الإسلام . فإذا تجاوزنا شعر ابن رواحة الذي استشهد في وقت مبكر نسبياً (سنة ٨هـ) لم نجد في شعر

حسان وكعب سوى أبيات قليلة قيلت في مقام رثاء الشهداء ، أو في مقام
الفخر في الشعر الذي قيل في مواجهة المشركين . ومن ذلك ، مثلاً ، ما
قاله حسان في رثاء حمزة^{٣٩}:

دَغَ عَنْكَ دَارًا قَدْ عَفَا رَسْمُهَا وَابِكَ عَلَى حَمَزَةَ ذِي النَّائِلِ
الْمَالِي الشَّيْزَى إِذَا أَغْصَفَتْ غَبْرَاءُ فِي السَّنَةِ الْمَاجِلِ^{٤٠}
والتَّارِكِ الْقِرْنَ لَدَى لَبْدِهِ يَعْتُرُ فِي ذِي الْخُرُصِ الدَّابِلِ^{٤١}

وفضلاً عن المطلع الجاهلي لهذه المراثية ، وعن صيغة التخلص
الجاهلية من المقدمة الطللية إلى "الغرض" فإن صورة "حمزة الكريم" لا
تختلف عن صورة أي كريم جاهلي؛ فهو المطعم في وقت القحط ،
والمدافع القوي في وقت الحرب.

ويرثي كعب حمزة ، أيضاً ، بقصيدة يبدؤها بمقدمة طيفيّة ، ثم يتخلص
بصيغة جاهليّة بقوله: "قدح التماذي . . . " قبل أن يصل إلى الرثاء ،
فيرسم صورة لكرم حمزة لا تختلف في جوهرها عن الصورة التي رأيناها
في شعر حسان . فالصورة هي هي عند الشاعرين ، والمعاني نفسها
تتكرر ، وما يختلف فقط هو طريقة عرض كلٍّ منهما للمعاني ، يقول
كعب^{٤٢}:

قَرَّمْ تَمَكَّنَ فِي ذُوَابَةِ هَاشِمٍ حَيْثُ النُّبُوَّةُ وَالنَّذَى وَالسُّوْدُ
وَالْعَاقِرُ الْكُومَ الْجَلَادَ إِذَا غَدَتْ رِيحٌ يَكَادُ الْمَاءَ مِنْهَا يَجْمُدُ^{٤٣}
والتَّارِكِ الْقِرْنَ الْكَمِيَّ مُجَدَّلًا يَوْمَ الْكَرْيَةِ وَالْقَنَا يَنْفَصَدُ^{٤٤}

ولا يختلف حديث الكرم في مقام الفخر ، عنه في مقام الرثاء ، عند
كعب ، إلا من حيث تفصيله في الصورة ، إذ تبقى الملامح الجاهلية

للصورة بارزة واضحة ، بينما تغيب أية ملامح إسلامية يمكن أن تشير إلى انتماء النص إلى العصر الإسلامي ، فيما لو نظر إلى هذا الحديث بمعزل عن سياقه في القصيدة التي تحوي قرائن انتمائها إلى هذا العصر^{٤٥} .

ونبحث عن ملامح إسلامية في شعر مخضرمين آخرين لم ينشغلوا بما انشغل به شعراء الدعوة ، وأُتيح لهم من الوقت ما يكفي للتفكير بإبداع صورة إسلامية للكرم ، ولكننا لا نجد عندهم غير ما وجدناه عند كعب وحسان . فليبّ بن ربيعة نظم مجموعة قصائد في رثاء أخيه أربد^{٤٦} ، فتحدث فيها عن كرمه حديثاً جاهلياً . وقد نجد مسوّغاً لذلك في أن أربد مات جاهلياً ، فلا سبيل إلى الاستعانة بالمعاني الإسلامية في رثائه ، ولكننا لا نجد مسوّغاً مقنعاً لغياب تلك المعاني عن صورة الكرم التي يرسمها لبّيد لنفسه ، في قصيدة له قالها في أواخر حياته ، تحدث فيها عن موافقه ومآثره ، فقال^{٤٧} :

وَعُلَامٍ أَرْسَلْتَهُ أُمُّهُ بِأَلُوكٍ فَبَذَلْنَا مَا سَأَلَ^{٤٨}
أَوْ نَهْتَهُ فَأَتَاهُ رِزْقُهُ فَاسْتَوَى لَيْلَةً رِيحٍ وَاجْتَمَلَ^{٤٩}
مِنْ شِوَاءٍ لَيْسَ مِنْ عَارِضَةٍ بِيَدَيَّ كُلِّ هَضُومٍ ذِي نَزَلٍ^{٥٠}

ونقرأ أبياتاً أخرى لنهشل بن حرّيّ النهشليّ التميمي ، قالها في رثاء أخيه مالك الذي قتل في موقعة صفين ، في أواخر صدر الإسلام ، أي بعد مدة من الزمن تسوّغ لنا توقّع التأثير بالقيم الإسلامية والصدور عنها في رسم صورة لـ"كريم" مختلفة عن الصورة الجاهلية المعهودة ، غير أن الشعور بالخيبة ما يلبث أن يملأ النفس ونحن نقرأ الأبيات . يقول نهشل^{٥١} :

لُبِّي عَلَى مَالِكِ الْأَضْيَافِ إِذْ نَزَلُوا حِينَ الشَّتَاءِ وَعَزَّ الرِّسْلُ فَانْجَدَعَا^{٥٢}
وَلَمْ يَجِدْ لِقَرَاهُمْ غَيْرَ مُرْبِعَةٍ مِنَ الْعِشَارِ تُزَجِّي تَحْتَهَا رُبْعَا^{٥٣}
أَهْوَى لَهَا السَّيْفُ تَرَا وَهِيَ رَائِعَةٌ فَأَوْهَنَ السَّيْفُ عَظَمَ السَّاقِ فَانْقَطَعَا^{٥٤}
فَجَاءَهُمْ بَعْدَ رَقْدِ الْحَيِّ أَطْيَبُهَا وَقَدْ كَفَى مِنْهُمْ مِنْ غَابٍ وَاضْطَجَعَا^{٥٥}

فلا ارتباط ، إذن ، بين جاهلية الصورة وعدم إسلام المرثي ، أو إسلامه . فالأمر لا يتعلق بالمرثي ، بل بالشاعر الراثي نفسه ، ومدى تأثره بالمفهوم الجديد للكرم ، وقدرته على الاستفادة منه في صياغة صورة ذات ملامح إسلامية واضحة للكرم .

والحديث عن الكرم في مقام الرثاء في هذا العصر يقوم دليلاً على سمو هذه القيمة ، وهذا أمر لا ريب فيه ، ولكنه يشير إلى عدم قدرة الشعراء على تلمس المعاني الروحية لها . فهم لا يسعون إلى ربطها بالطاعة ، أو بالإيمان ، ولا يشيرون إلى الجزاء الذي ينتظر الكريم في الآخرة- كما أشاروا إلى الجزاء الذي ينتظر الشهيد ، مثلاً- أو إلى الجزاء الذي وعد الله به في الدنيا . وكأنهم لم يتمعنوا في الآيات القرآنية التي تحدثت عن الإنفاق ، ولم يلتفتوا إلى ما فيها من صور فنية رائعة ، كان من شأنها أن تغذي أخیلتهم ، وتنشطها نحو إبداع صور فنية متميزة للكرم والكريم .

ولا يختلف حديث الكرم في مقام المدح عنه في مقام الرثاء ، وإذا كنا افنقدنا الملامح الإسلامية لـ"الكريم" المسلم في موقف هو أدعى لذكر صفاته الإيمانية ، فإن افتقادها في مقام المدح لن يكون مستغرباً . وهذا كعب بن زهير يمدح الأنصار فلا يضيف جديداً إلى ما قاله أصحابه في مرثيتهم ، يقول^{٥٦} :

وَالْمُطْعَمُونَ الضَّيْفَ حِينَ يَنْوِبُهُمْ مِنْ لَحْمِ كَوْمٍ كَالْهَضَابِ عِشَارٍ^{٥٧}
وَالْمُنْعَمُونَ الْمُفْضِلُونَ إِذَا شَتَّوْا وَالضَّارِبُونَ عَلَاوَةَ الْجَبَّارِ^{٥٨}

والحق أن المدح لم يكن كثيرًا في هذا العصر ، ولم يكن موقف الإسلام من هذا الفن مشجعًا ، فقد نظر إليه بحذر وريبه ، لما قد يتطلبه من إضفاء صفات على الممدوح ليست فيه ، فيدخله ذلك في إطار "الكذب" بمعناه الأخلاقي . وإذا ظل المدح المعبر عن إعجاب ، أو الذي قيل تعبيرًا عن شكر ، واعترافًا بجميل ، مقبولاً ، فإن مدح التكسب لم يعد مقبولاً على الإطلاق . كما أن مدح ذوي السلطة ، من خلفاء وولاة ، لم يكن مغرياً بالنسبة إلى الشعراء الذين يستهويهم هذا الضرب من المدح ، إذ إن ما في خزائن هؤلاء من مال كان ملكاً لبית مال المسلمين ، وليس لهم حق التصرف فيه كما يشاؤون .

غير أننا - على الرغم من ذلك - نرى الحطينة يطرق أبواب الولاة يستجديهم ، وكأنه لم يستطع أن يجد مصدر رزق يعيش منه إلا الشعر ، فاستمر يمدح ويهجو ، طمعًا بما قد يدره عليه المدح ، أو الهجاء ، من عطايا . غير عابئ بمحاولة التعبير عن الأبعاد الروحية للقيمة ، أو لصورة حاملها^{٥٩} . وليس في حديثه عن الكرم جديد عما كان يقوله في الجاهلية ، بل هو الحديث نفسه ، يفصل فيه حيناً و يوجز آخر . ويظهر اهتماماً أكثر بصفة ما في موضع ، ليعطي الاهتمام لصفة أخرى في موضع آخر . وهو في ذلك كله يعتبر عن براعة فنية عالية ، وعن موهبة فذة ، ولكنه يعتبر أيضاً عن عدم تأثر بالإسلام . ولكن ليس بوسعنا أن نرد غياب المحتوى الإسلامي لصورة الكرم ، في أشعاره ، إلى سبب واحد؛

هو عدم تأثره بالإسلام ، إذ إن غياب هذا المحتوى يطالعنا في أشعار آخرين عرفوا بصدق إيمانهم؛ مثل حسان وكعب بن مالك ، مثلاً .

ج- صورة الكريم:

من خلال تتبع صورة الكريم يمكن أن نلاحظ أنها تتشكل من مجموعة من الملامح المادية والمعنوية؛ فالكريم قوي ، وذو نسب رفيع ، ومكانة مرموقة ، وخصال محمودة . وكرمه متوارث عن أب وجد ، وهو طبع فيه ، ولذلك لا يتردد لحظة في تقديم أغلى ما عنده لأيّ ضيف يأوي إليه . ولأن هذه الخصال معروفة مشهورة ، صار قبلة للمحتاجين في زمن البرد والجوع؛ فهم أمام بيته طوال ذلك الزمن ، ولهذا فإن الكلاب التي لا تهرّ ، والجفان المملأى باللحم ، والنار التي لا تنطفئ ، وما يستلزم الطبخ وإعداد الطعام من أناس وأدوات ، من الأشياء التي تبدو في اللوحة بشكل جلي . وهذه الملامح تنتشر على امتداد شعر الكرم في أشعار الجاهليين والمخضرمين ، وهي أكثر من أن نشير إليها ، أو نستشهد عليها . ولكنها-كالعادة في أية صورة نموذجية- لا تجتمع كلها في لوحة شعرية واحدة ، بل تتوزع على مجموعة كبيرة من اللوحات التي تختلف حظوظها منها باختلاف المواقف التي يتحدث فيها الشعراء ، والصور التي كانوا يختارونها للتعبير عن القيمة .

ولكن الشعراء قلما يكتفون بتلك الملامح في بناء الصورة ، بل يضيفون ملمحاً آخر لتعميق معنى الكرم هو خوف النوق من الكريم ، فهي تدرك- بحكم العادة- أن اقترابه منها لا يكون إلا لذبحها وجعلها طعاماً للضيوف . وإذا كانت هذه الصورة مقبولة في الشعر الجاهلي ، فإنها في الشعر

الإسلامي بحاجة إلى إعادة نظر ، لأن الإسلام وضع لعملية "ذبح الحيوان" أسساً أخلاقية لا يصح تجاوزها . ولكن الشعراء لم يلتفتوا إلى ذلك في بناء الصورة ، بل جعلوا "الكريم المسلم" يسلك سلوك الجاهلي^{٦٠} .

وثمة صوت كان يطرق أسماعنا في بعض لوحات الكرم الجاهلية ، هو صوت العاذلة الذي يعكس شعوراً بالقلق كان يعتري الكريم وهو ينفق أمواله . فلقد كان الكرم- أحياناً- أداة لتحقيق الذات في مواجهة الدهر ، وفي مواجهة قلق الموت . وكان الكريم يسعى ، من خلال فعله ، إلى تعميق إحساسه بالرابط الاجتماعي ، وإلى تحقيق ضرب من الخلود يتمثل ببقائه في ذاكرة الناس . ولكنه إذ يفعل ذلك كان يدرك أنه ينفق ما هو موجود متحقق ، من أجل ما هو مأمول غير متحقق ، ولا سبيل إلى التيقن من تحققه! . ويمكن أن نزع أن صوت العاذلة لم يكن سوى صوت الشاعر الداخلي الذي كان يحاوره في جدوى ما يفعل . وهو صوت كان يكشف عن هويته في بعض الأحيان ، حتى في شعر حاتم الطائي الذي يشير إلى نفسين تحاورانه؛ إحداهما تدعوه إلى البخل ، والأخرى تدعوه إلى الكرم ، فيقول^{٦١}:

أشاورُ نفسَ الجودِ ، حتَّى تُطيعني ، وأتركُ نفسَ البخلِ ، لا أسسِّيرُها
وكان من المتوقع أن يغيب هذا الصوت عن أسماعنا ونحن نتأمل في صورة الكريم المسلم ، إذ نفترض أن الشاعر المسلم قد استطاع أن يتجاوز ما عاناه سلفه في ضوء ما قدمه الإسلام من فهم جديد للعالم ، ومن وعد بالثواب العظيم للمنفقين المؤمنين . ولكنه- أعني الصوت- يطرق أسماعنا ثانية ونحن نصغي إلى أحاديث الكرم . غير أننا يمكن أن

نرجح أنه لم يعد أكثر أسلوب فني أعجب الشاعر الذي ورثه عن أسلافه فلم يجد بأسًا من الاستعانة به في التنويه بموقفه الأصيل من الكرم وبشجاعته في إنفاق المال .

وهذا معن بن أوس يذكرنا بحاتم الطائي ، وهو يردّ على عاذلته التي تلومه لأنها لا ترى في إنفاقه سوى خسارة ونقص ، ولا تستطيع أن تشعر بما يشعر به من امتلاء واكتمال وهو يمارس كرمه ، ولا تستطيع أن تعي الحقائق التي يعيها ، والتي تجعل الشئ خيرًا من المال . فيبين لها أن الحياة أقصر من أن يطمع فيها الإنسان ، وأن من يعي ذلك عليه أن يدخر لما بعد الحياة . ولكنه لا يقصد بذلك الثواب في الآخرة ، بل حسن الأحدث في الدنيا ، فيقول ^{٦٢}:

ذَرِينِي فَمَا أُعْطِيَ بِمَا حَلَّ سَاحَتِي	أَسُودُ فَأُكْفَى أَنْ أَطِيعَ الْمُسَوِّدَا
إِذَا زَالَ نَعْشِي وَاعْتَرَّتْنِي مَنِيَّتِي	وَصَاحَبْتُ فِي لَحْدِي الصَّقِيحَ الْمُنْضِدَا
فَقُولِي فَتَى مَا غَيَّبُوا فِي ضَرْبِهِمْ	تَرْوَدَ مِنْ حُبِّ الْقَرَى مَا تَزُودَا
أَبَى لَا يُطِيعُ الْعَازِلَاتِ وَلَا يَرَى	مِنْ الْمَوْتِ حِصْنًا لِلْبَخِيلِ مُشِيدَا
سَأُوْثِرُ بِالْمَعْرُوفِ عَرْضِي مِنَ الْأَذَى	وَأَذْنُو مِنَ الْمُعْتَرِّ أَنْ يَتَبَعَّدَا

وصورة الكرم تأتي ، في الغالب ، في إطار صورة الرجل النموذج التي يتطلع إليها المجتمع ، ويجتهد الشاعر في محاولة بلوغها . غير أننا لا نعدم صوراً أغرت الشعراء فاستغرق بناؤها الدققة الشعورية التي تملكثهم في أثناء إبداعها ، فكانت صوراً للكرم قائمة بذاتها . وهي صور قد تكون موجزة فلا تتجاوز بضعة أبيات تشكل مقطوعة قصيرة ، وقد يفصل الشاعر فيها فتكون قصيدة ^{٦٣} . والشاعر يميل إلى القص في هذا

الضرب من الحديث عن الكرم؛ فيتحدث عما عاناه ضيفه من ظلمة وبرد وجوع ، قبل أن يصل إليه ، وعن إضرامه النيران له ليهتدي ، ثم عن استقباله له ، وقيامه بما يليق بكريم مثله أن يقوم به . وهو في كل ذلك يحاول التأثير في المتلقي مستعيناً بإثارة إعجابه بسلوكه الذي يبدو ردّاً على قسوة الطبيعة وشدة الدهر ، اللذين يطاردان هذا "الإنسان" . وبذلك لا يثبت الشاعر لنفسه صفة الكرم ، بما لا يدع مجالاً للشك ، فحسب ، بل يظهر نفسه ملاذاً آمناً لمن تطاردهم الحياة بقسوتها .

ويلاحظ أن الشعراء كانوا يحرصون على ذكر "القوة" كصفة ملازمة للكرم . وهي ملازمة اقتضتها طبيعة الحياة الجاهلية؛ فتفاعل القوة والكرم في الصورة يمنح الكريم معنى "الأمن"؛ فقوته ملاذ من قسوة الدهر ، وكرمه موئل من قسوة الطبيعة . وبذلك تتحقق فيه الضمانات اللازمة لجعل الحياة جديرة بأن تعاش . ومع أن طبيعة الحياة تغيرت في صدر الإسلام عما كانت عليه في الجاهلية ، ومع أن تعديلاً طرأ على مفهوم الكرم ، أدى إلى تغير في "وظيفة" الكريم ، فإن اقتران الكرم بالقوة ظل ملازماً لصورة الكريم المسلم! . وكأن الشعراء ظلوا ينهلون من الشعر الجاهلي ، أكثر مما ينهلون من الواقع الجديد ، في إبداعهم الشعري . ولذلك ظلّ الكريم يمثل حالة من الأمن في زمن الشدة ، ظلّ يمثل "وظيفة" أكثر مما يمثل شخصاً ، فهو "ربيع"^{٦٤} ، وحيث يكون لا يكون شتاء^{٦٥} ، وهو موضع آمال الناس ، ومصدر طمأنينتهم ، ولذلك فهم يتبعونه أينما ذهب . يقول متمم^{٦٦}:

فَتَى لَمْ يَعِشْ يَوْمًا بِدَمٍ وَلَمْ يَزَلْ حَوَالَيْهِ مِمَّنْ يَجْتَدِيهِ رُبُوعٌ^{٦٧}
لَهُ تَبَعَ قَدْ يَعْلَمُ النَّاسُ أَنَّهُ عَلَى مَنْ يُدَانِي صَيْفٌ وَرَبِيعٌ^{٦٨}

ولم يستطع الشعراء أن يعبروا عن القيمة الدينية للكرم ، فضلَ في أشعارهم قيمة دنيوية تسعى إلى تجنب الدَّم ، واستجلاب الثناء . وقد رأينا هذا في قول معن بن أوس السابق ، ويمكن أن نراه في أشعار غيره . يقول حسان^{٦٩}:

وَأَجْعَلُ مَالِي دُونَ عِرْضِي وَقَايَةً وَأُخْجِبُهُ كَيْ لَا يَطِيبَ لِأَكْلِ
وِيرِدَ النَّمْرِ بْنِ تَوْلَبٍ عَلَى أَخِيهِ الَّذِي يُلُومُهُ عَلَى "إِهْلَاكِ" مَالِهِ ، بأبيات من قصيدة قالها بعدما كبر وأسنَّ ، فيذكر أنه لم يضيع ماله على ملذات الحياة من طعام وشراب ونساء ولباس ، وغير ذلك ، بل أنفقها في مساعدة الفقراء والمحتاجين . وهو بقوله يبيِّن أن بذل المال لهؤلاء ليس "تضييعاً" بل هو "تجميع" . وواضح أن الإنفاق في هذا السبيل مما دعا إليه الإسلام ، ووعده بالثواب عليه ، إذا كانت الغاية منه وجه الله ﷻ ، ولكن النمر يفعل ذلك وقاية لحسبه ، وإعزازاً لعرضه ، كما يقول^{٧٠}:

يَلُومُ أَخِي عَلَى إِهْلَاكِ مَالِي وَمَا إِنَّ غَالَهُ ظَهْرِي وَبَطْنِي^{٧١}
وَلَا ضَيِّعْتُهُ فَالْأَمُّ فِيهِ فَإِنَّ ضَيَاعَ مَالِكَ غَيْرُ مَعْنٍ^{٧٢}
وَلَكِنْ كُلُّ مُخْتَبِطٍ فَقِيرٍ يَقُولُ أَلَا اسْتَمِعَ أَنْبُوكَ شَأْنِي^{٧٣}
وَمُسْكِينٌ وَأَعْمَى قَالَ يَوْمًا أَغْنَيْتَنِي لِلْإِلَهِ وَلَا تَدْعُنِي^{٧٤}
وَأَعْطَانِي ذَوِي الْأَرْحَامِ مِنْهُ وَتَوْسِيعِي لِذِي عَجَزٍ وَضَفْنٍ^{٧٥}
أَقِي حَسْبِي بِهِ وَيَعِزُّ عِرْضِي عَلَيَّ إِذَا الْحَقِيزَةُ أَنْزَلَتْكُنِي^{٧٥}

وبعد ذلك ، يمكن أن نقول إن صورة الكريم المسلم ، في لوحة الكرم ، لم تختلف عن صورة الكريم الجاهلي ، إن من حيث الشكل ، أو من حيث الغاية التي يسعى إليها . وكأن الشعراء كانوا على عجلة من أمرهم ،

فساروا على الدرب التي مهّدها لهم أسلافهم ، ولم يتوقفوا لمحاولة بناء صور تكشف عن البعد الروحي لهذه القيمة .

وبدا الشاعر المخضرم- كسلفه الجاهلي- مشغولاً بالتفكير في "مضمون" القيمة- كما استقرّت في الوجدان الجمعي قبل الإسلام- أكثر من انشغاله بالتفكير في شكلها ، فما يعنيه هو الجانب الأصيل منها . لقد كان حريصاً على الكرم- أو غيره من القيم- أكثر من حرصه على الصور التي يتجلّى بها الكرم . ولم تكن الصور المختلفة للكرم تعبيراً عن تفضيل كرم على آخر ، بل كانت تعبيراً عن أهميّة الكرم ، ودعوة للحفاظ عليه والافتداء به . وفي غمرة هذا الاهتمام لم يلتفت الشاعر إلى الفارق بين مفهوم الكرم الجاهلي ومفهوم الكرم الإسلامي ، ولذلك فاتته أن يربط الكرم بالإيمان عند الحديث عن الكرم المسلم ، أو أن يلتفت إلى الملامح الإسلامية في صورتَي الكرم والكرم .

خاتمة ونتيجة:

وما نستطيع أن نقرره ، بعد هذه الدراسة ، هو أن الشعراء المخضرمين لم يستطيعوا التعبير عن القيم الأخلاقية الإسلامية بالشكل الذي يسهم في بناء نموذج أخلاقي إسلامي يتميز عن النموذج الأخلاقي الجاهلي . وهذا لا يعني عدم وجود آثار إسلامية في الشعر ، بل يعني أن تلك الآثار ظلت - في الغالب- شيئاً مضافاً إلى القصيدة ، وليست عنصراً مؤثراً في توالد صورها ، أو متماهياً في نسيج صور القيم المعبرة عنها . ويمكن أن نردّ ذلك إلى أمرين؛ الأول منهما هو أن المخضرمين-من شعراء وغير شعراء- دخلوا الإسلام حاملين معهم تاريخاً يعتزون به ،

وثقافة يؤمنون بها . . . ووعياً قيمياً يدركون من خلاله ذواتهم وشروط وجودهم ، ويتطلعون إلى آمالهم وأمانيتهم . ومن غير الممكن أن يتحرروا من ذلك كله ، خلال سنوات قليلة ، ليكونوا-إلا أقلهم- قادرين على تلقي الفيض الروحي الإسلامي ، والصدور عنه في حياتهم وإبداعاتهم .

ومن المعروف أن الشاعر يبدع لمتلقي ، حاضر أو ضمني . بمعنى أن المتلقي يلعب دوراً أساسياً في عملية الإبداع من خلال كونه معزراً هاماً للمبدع . ولذلك بقدر ما يكون المتلقي المسلم مؤهلاً للاستجابة للقيم الإسلامية ، ومهيأً للانفعال بها- وبصورها الفنية- والنظر إلى العالم من خلالها ، يكون الشاعر مستعداً لمغامرة البحث عن صور جديدة تعبر عنها ، وتكشف عن روحانياتها .

ولكن حتى يكون المتلقي كذلك لا بدّ من وجود مجتمع إسلامي يستشعر فيه أبنائه المعاني السامية للواجبات الجديدة ، ويصوغون ، في نفوسهم ، حكماً أخلاقياً مستمداً منها ، ولا يقفون عند حدود معرفة تلك الواجبات- أو معرفة بعضها- معرفة نظرية ، بحكم بعض النشاطات التوعوية التي اقتضتها ظروف العصر . "فليس باستطاعة أي تفكير نظري أن يخلق إلزاماً أو ما يشبه الإلزام . . . أما إذا وجد جو الانفعال ، فاستروحت نسيمه ، فنفذ إليّ ، فإنه يثيرني ، فأصنع ما يريد لا عن إكراه أو ضرورة ، بل عن ميل طبيعي لا أحبّ أن أقاومه"^{٧٦} .

والحق أن مثل هذا المجتمع لم يكن قد وجد بعد ، فمعظم القبائل ظلت في مواضعها السابقة تمارس حياتها بالطريقة نفسها التي كانت تمارسها في جاهليتها . والتغير الذي طرأ على المجتمع العربي- بالتوضع الجديد

للقبائل في المدن المستحدثة^{٧٧} ، وباشتراك تلك القبائل في الكثير من أوجه النشاط- لم يكن كافياً لإحداث "تغيير" يسهم في تحويل ذلك المجتمع إلى "مجتمع إسلامي" بالمعنى الدقيق ، إذ لم يستطع أن يحدث تعديلاً مؤثراً في المسافات الثقافية ، يؤدي-على الأقل- إلى وضوح التباين بين الثقافتين الجاهلية والإسلامية . ولو حدث مثل هذا لانعكست صورته-أو بعض ملامحها الواضحة- في الشعر . ولسمعنا صوتاً إسلامياً يتغنى بالإيمان ، والإحسان والبرّ ، ويعبر عن فرح بالحاضر . . . أكثر مما يتغنى بالعصبية القبليّة ، والقوّة ، والحنين إلى الماضي . والحق أن ذلك لم يكن ليتحقق خلال بضعة عقود من عمر الدعوة ، فمن المعروف أن الثقافة تتمتع إلى حدّ كبير بخاصية الثبات والاستقرار ، لكونها نتاج معرفة أجيال متتالية وليست من صنع فرد واحد أو جيل واحد^{٧٨} .

والأمر الثاني هو أن المسلمين لم يكونوا قادرين على التحرر من أسر الشعر الجاهلي الذي كان عند العرب "ديوان علمهم ومنتهى حكمهم ، به يأخذون ، وإليه يصيرون" كما قال ابن سلام^{٧٩} ، ولاسيما أنهم كانوا يعيشون مرحلة انتقالية . والمراحل الانتقالية يشوبها قدر كبير من القلق الناشئ عن عدم وضوح صورة المستقبل . وهو قلق يضرّم جذوة الحنين إلى الماضي الذي يتبدى بأبهى صورته ، بصفته ممثلاً للطمأنينة المفقودة ، فيغري بالاستعانة به في مواجهة قلق الحاضر . بل زاد الاهتمام بالشعر الجاهلي كونه أصبح مصدراً من مصادر تفسير النصّ القرآني^{٨٠} . وهكذا احتفظ الشعر الجاهلي بمكانته الثقافية ، وبمكانته الفنيّة ، فلم يقوَ الشاعر المخضرم على مقاومة إغراءات الاستعانة به ، وبإنجازات أصحابه في

التعبير عن القيم ، فراح يهتدي بهديهم في التعبير عن القيم الإسلامية ، ويستعير أدواتهم نفسها . فكان أن غابت الملامح الإسلامية في كثير من الأحيان - عن صور تلك القيم لصالح الملامح الجاهلية ، مما أسهم في فهم تلك القيم وفق المرجعيات الجاهلية .

ومن أجل فهم أعمق وأدق للحركة الشعرية في صدر الإسلام نقترح ما يلي:

- العمل على الكشف عن العناصر المكونة لكل من الثقافتين؛ الجاهلية والإسلامية ، من خلال تجليها في شعر هذا العصر .

- الكشف عن الأثر الإسلامي في هذا الشعر من خلال تتبع تجليات القيم الإسلامية ، وليس من خلال تتبع الألفاظ ، والتراكيب الدينية الواردة فيه .

- إعادة دراسة لغة القرآن الكريم بوصفها لغة دينية لها خصوصيتها التي تميزها وتعطي لألفاظها دلالات قد لا تتطابق مع الدلالات المعجمية المستعملة .

- الكشف عن أثر الحدث التاريخي ، في الحدث الثقافي ، في تلك المرحلة .

ثبت المصادر والمراجع

- القرآن الكريم .
- الأخلاق في الإسلام ، عبد اللطيف محمد العبد - دار العلوم ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٨٥ .

- الأخلاق النظرية ، د . عبد الرحمن بدوي- وكالة المطبوعات ، الكويت ، ط ٢ ، ١٩٧٦ .
- التغير الاجتماعي ، د . فادية عمر الجولاني- مؤسسة شباب الجامعة- الإسكندرية- ١٩٩٣ .
- ديوان تميم بن أبي بن أبي مقل . عني بتحقيقه د . عزة حسن- دار الشرق العربي ، بيروت ، ١٩٩٥ .
- ديوان حاتم بن عبد الله الطائي وأخباره الطائي . صنعة يحيى بن مدرك الطائي ، رواية هشام بن محمد الكلبي . دراسة وتحقيق عادل سليمان- مطبعة المدني ، القاهرة ، ١٩٧٥ .
- ديوان حسان بن ثابت . تحقيق د . سيد حنفي حسنين - دار المعارف ، القاهرة ، ١٩٧٩ .
- ديوان الحطيئة ، بشرح ابن السكيت والسجستاني . تحقيق نعمان أمين طه- مطبعة مصطفى البابي الحلبي ، مصر ، ط ١ ، ١٩٥٨ .
- ديوان ربيعة بن مقروم الضبي . جمع وتحقيق تناصر عبد القادر فياض حروفش- دار صادر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٩ .
- ديوان العباس بن مرداس جمعه وحققه د . يحيى الجبوري- مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩١ .
- ديوان عبد الله بن رواحة الأنصاري الخزرجي . تحقيق د . حسن محمد باجودة- دار التراث ، القاهرة ، ١٩٧٢ .
- ديوان عمرو بن كلثوم . صنعة د . علي أبو زيد- دار سعد الدين ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٩١ .

- ديوان قيس بن الخطيم . تحقيق د . ناصر الدين الأسد- دار صادر ، بيروت ، بلا تاريخ .
- ديوان كعب بن زهير . قرأه د . محمد يوسف نجم- دار صادر ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٥ .
- ديوان كعب بن مالك الأنصاري . تحقيق ودراسة د . سامي مكي العاني . عالم الكتب ، بيروت ، ط ٢ ، ١٩٩٧ .
- ديوان لبید بن ربیعۃ (ضمن ديوان الفروسية) شرح يوسف عيد - دار الجیل ، بيروت ، ط ١ ، ١٩٩٣ .
- ديوان المثقب العبدی . عني بتحقيقه وشرحه حسن كامل الصيرفي- معهد المخطوطات العربية ، مصر ، ط ٢ ، ١٩٩٧ .
- ديوان المخبل السعدي . جمع وتحقيق د . محمد نبيل طريفی- دار صادر ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠٧ .
- ديوان المزرد بن ضرار الغطفاني . عني بتحقيقه خليل إبراهيم العطية- مطبعة أسعد ، بغداد ، ط ١ ، ١٩٦٢ .
- ديوان معن بن أوس المزني . جمعه وحققه عمر محمد سليمان القطاب- دار العلم للطباعة والنشر ، جدّة ، ط ١ ، ١٩٨٣ .
- ديوان النجاشي الحارثي . جمعه وحققه د . عدنان محمد أحمد- دار صادر ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠٩ .
- ديوان النمر بن تولى العكلي . جمع وشرح وتحقيق د . محمد نبيل طريفی- دار صادر ، بيروت ، ط ١ ، ٢٠٠٠ .
- شعر مَتمم بن نويرة(ضمن كتاب "مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي") تأليف ابتسام الصفار- مطبعة الإرشاد ، بغداد ، ١٩٦٨ .

- صحيح البخاري . تحقيق محمد زهير بن ناصر الناصر - دار طوق النجاة ، ط ١ ، ١٤٢٢هـ .
- طبقات فحول الشعراء طبقات فحول الشعراء ، محمد بن سلام الجمحي - شرح محمود محمد شاكر - مطبعة المدني - القاهرة - ١٩٧٤ .
- العصبية القبلية وأثرها في الشعر الأموي ، د . إحسان النص - دار النقيطة العربية - بيروت ، ١٩٦٣ .
- العقد الفريد ، لابن عبد ربه . شرحه وضبطه أحمد أمين وأحمد الزين وإبراهيم الأبياري - مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ، القاهرة ، ط ٢ ، ١٩٤٨ .
- العمدة في فلسفة القيم ، د . عادل العوا . دار طلاس ، دمشق ، ط ١ ، ١٩٨٦ .
- المجتمعات الإسلامية في القرن الأول ، د . شكري فيصل - دار العلم للملايين ، بيروت ، ط ٥ ، ١٩٨١ .
- المحاسن والمساوئ ، إبراهيم بن محمد البيهقيز تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم - دار المعارف ، مصر ، ١٩٩١ .
- المزهر في علوم اللغة وأنواعها ، جلال الدين السيوطي ، مطبعة عيسى البابي الحلبي - مصر ، ط ٢ ، بلا تاريخ .
- مشكل الآثار ، للطحاوي (أحمد بن محمد بن سلامة) تحقيق شعيب الأرناؤوط - مؤسسة الرسالة ، بيروت ، ١٤١٥هـ .
- معرفة الصحابة ، لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الأصبهاني . تحقيق عادل يوسف العزازي - دار الوطن ، الرياض ، ١٤١٩هـ .

- المفضليات ، للمفضل الضبي . تحقيق أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون- دار المعارف ، مصر ، ط٤ ، بلا تاريخ .
- مقدمة للشعر العربي ، أدونيس(علي أحمد سعيد)- دار العودة ، بيروت ، ط٣ ، ١٩٧٩ .
- مكارم الأخلاق ، للإمام أبي بكر عبد الله بن محمد بن أبي الدنيا القرشي البغدادي . تحقيق بشير محمد عيون- مكتبة دار البيان ، دمشق ، ط٢ ، ٢٠٠٩ .
- منبع الأخلاق والدين ، هنري برجستون . ترجمة د . سامي الدروبي و د . عبد الله عبد الدايم . الهيئة المصرية العامة للتأليف والنشر ، ١٩٧١ .
- موطأ مالك ، رواية يحيى الليثي . تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي- دار إحياء التراث العربي ، القاهرة ، تا/بلا .
- وقعة صفين ، نصر بن مزاحم المنقري . تحقيق وشرح عبد السلام محمد هارون- المؤسسة العربية للنشر والتوزيع ، القاهرة ، بلا تاريخ .

الهوامش

• - أستاذ الأدب الإسلامي في جامعة تشرين- اللاذقية .

١ - الأخلاق النظرية: ٣٣ ، والمعدة في فلسفة القيم: ٤٤٠

٢ - المعدة في فلسفة القيم: ٤٤١ .

٣ - المعدة في فلسفة القيم: ٤٣٨ .

٤ - المعدة في فلسفة القيم: ٤٣٦ .

٥ - المعدة في فلسفة القيم: ' .

٦ - الموطأ: باب حسن الخلار

- 77 - انظر الأخلاق في الإسلام: ٢١ ، ٢٢ .
- 8 - انظر مشكل الآثار للطحاوي: ٨٧/٥ .
- 9 - انظر سورة الفرقان: ٢٥ ، الآية: ٦٣ .
- 10 - سورة الحجرات: ٤٩ ، الآية: ١٣ .
- 11 - انظر معرفة الصحابة: ٣٤٥/٢١ ، حديث رقم ٦٥٢١ ، وانظر صحيح البخاري باب "الوصاة بالجل" حديث رقم ٥٥٥٥ .
- 12 - سورة المائدة: ٥ ، الآية: ٢ .
- 13 - انظر ، مثلاً ، سورة لقمان: الآية: ١٧ ، وسورة الشورى ، الآية: ٤٣ .
- 14 - انظر ، مثلاً ، سورة المائدة ، الآية: ١٣ ، وسورة النور ، الآية: ٢٢ .
- 15 - انظر ، مثلاً ، سورة النحل ، الآية: ٩٠ .
- 16 - ديوانه: ٢١٥ . وانظر ديوان العباس بن مرداس: ٧٠ .
- 17 - ديوانه: ١٦٣ . وانظر ديوان العباس بن مرداس: ٧٤ .
- 18 - أشرجننا: ربطنا . الجدل: جمع جدل ، وهي الدرع المحكمة النسيج . الأرب: جمع أربة ، وهي العقدة الشديدة .
- 19 - السوابغ: جمع سابغة ، وهي الدرع الكاملة . الزناد الممثل: الذي إذا قدح لا يدرى أيوري ناراً أم لا . ويضرب مثلاً لمن لم يتخير أبوه في التكنح .
- 20 - المنكى: الذي بلغ الغاية من القوة . صبي السيف: حده .
- 21 - ديوانه: ٨٨ . وانظر ، أيضاً قول عمار بن ياسر في "وقعة صفين": ٣٢٠ .
- 22 - فرغ: أي ضربة ذات جرح واسع يتنفق دمه وتطفو رغوته .
- 23 - حران: طشان . مجهزة: سريعة القتل متعة .
- 24 - الجثث: القبر .
- 25 - انظر ، مثلاً ، ديوان قيس بن الخطيم: ٤٩ ، وديوان عمرو بن كلثوم: ٨٧ .
- 26 - انظر ، مثلاً ، ديوان كعب بن مالك: ١٧٦ ، و ١٨٤ .
- 27 - ديوانه: ١٦٦ ، ١٦٧ . وانظر أبياتاً لكعب بن مالك في ديوانه: ٢٠٦ ، وأبياتاً لربيعة بن مقروم اللضيبي في ديوانه: ٤٧ .
- 28 - الأبيات ليست على التوالي ، انظر القصيدة في ديوانه: ٩٣ ، وما بعدها .
- 29 - سورة البقرة: الآية ٣ . وانظر أيضاً سورة الأنفال: الآية ٣ ، وانظر أيضاً سورة الحج: الآية ٣٥ ، وسورة الشورى: الآية ٣٨ ، وسورة القصص: الآية ٥٤ .
- 30 - سورة الحديد: الآية ٧ .
- 31 - سورة البقرة: ٢٦٥ ، وانظر أيضاً الآية ٢٦١ .
- 32 - انظر سورة البقرة: الآية ٢٦٢ .
- 33 - انظر سورة النساء: الآية ٣٦ .
- 34 - انظر سورة النساء: الآية ٣٨ .
- 35 - انظر ، مثلاً ، سورة الفرقان: الآية ٦٧ ، وسورة الإسراء: الآيات ٢٦ ، ٢٧ ، ٢٩ .
- 36 - انظر مكارم الأخلاق: ١٨ .

- 37 - انظر مكارم الأخلاق: ١٩ . وانظر الحديث بلفظ آخر في المحاسن والمساوي: ١٧٦ . وانظر أحاديث أخرى له * عن أهمية الكرم في المحاسن والمساوي: ١٧٥ ، و ١٧٦ .
- 38 - المعقد الفريد: ٢٩٣/١ .
- 39 - ديوانه: ٢٢٠ .
- 40 - الشيزى: الجفان .
- 41 - القرن: الذي يقاوم في القتال . اللبد: لبد السرج . ذو الخرص: الرمح ، والخرص السنان . لذابل: الرقيق الشديد .
- 42 - ديوانه: ١٦٠ .
- 43 - الكوم: جمع كوما ، وهي الإبل المنظمة السنام . الجلاذ: القوية .
- 44 - الكمي: الشجاع . مجدلاً: ملقى على الجدالة ، وهي الأرض . يتفصد: يتكسر .
- 45 - انظر ديوانه: ٢١٢ .
- 46 - انظر ديوانه: ١٢٩ ، ١٥١ ، ١٥٢ ، ٢٦٩ .
- 47 - ديوانه: ٢١٣ ، ٢١٤ .
- 48 - الألوک: الرسالة .
- 49 - اجتمل: انتفع ، والشحم يسمى الجميل .
- 50 - الهضوم: الفتى الذي يهضم ماله ويبتذله في صنوف المعروف . النزل: الخير .
- 51 - وقعة صفين: ٢٦٦ . وانظر أبياتاً قالها للتجاشي الحارثي(ديوانه: ٨٧) في رثاء الحسن بن علي(عليهما السلام) .
- 52 - الرّمل: اللين .
- 53 - المربعة: ذات الرّبع ، وهو ما ولد من الإبل في الربيع . تزجي: تسوق .
- 54 - التّر: اللقطع والإبنة .
- 55 - الرقد: النوم ، كالرقاد والرقود . من غاب: أي من غاب وقعد عن برّ الأضياف .
- 56 - ديوانه: ٤٤ .
- 57 - الكوم: جمع كوما ، وهي الناقة العظيمة السنام . المشار: جمع عُشراء ، وهي التي أتى عليها عشرة أشهر من حملها .
- 58 - العلوة: العنق .
- 59 - انظر ، مثلاً ، مدحه للوليد بن عقبة بن أبي معيط في ديوانه: ٢٣٩ .
- 60 - انظر ، مثلاً ، ديوان تميم بن أبي بن مقل: ٧٣ .
- 61 - ديوانه: ٢٤٦ .
- 62 - ديوانه: ٣٦ . وانظر أيضاً ديوان تميم بن أبي بن مقل: ٣٨ ، وديوان كعب بن زهير: ٦٨ ، ديوان المخبل السعدي: ٨١ .
- 63 - انظر ، مثلاً ، من الشعر الجاهلي: قصيدة المنقب المبدى في ديوانه: ١١٧ وما بعدها . وانظر مثلاً من شعر المخضرمين قصيدة عمرو ابن الأثم ، في المفضليات: ١٢٧ ، وقصيدة المزرد بن ضرار في ديوانه: ٤٩ وما بعدها .
- 64 - انظر ، مثلاً ، ديوان التجاشي: ٣٨ .
- 65 - انظر ، مثلاً ، ديوان الحطينة: ١١٧ .
- 66 - شعره: ١٠٣ ، ١٠٤ (ضمن كتاب: "مالك ومتمم ابنا نويرة اليربوعي") .
- 67 - يجتنيه: يطلب جدواه . الربوع: جمع ربع ، وهو المنزل ، أي يكثر حوله النازلون .

- 68 - تبع: جمع تابع . يداني: يقاربه ويأتيه . المصيف: المطر الذي يجيء في الصيف .
- 69 - ديوانه: ١٦٧ . وانظر ديوان معن بن أوس: ٩٠ ، وديوان لبيد: ٢٨٣ . وديوان تميم ابن أبي بن مقبل: ٢٠٠ .
- 70 - ديوانه: ١٣٣ .
- 71 - غاله: اهلكه وذهب به .
- 72 - معن: يسير .
- 73 - المختبط: الذي يغطي السائل من غير أسرة قرابة ، ولا معرفة .
- 74 - ضفن: مع الضيف جاء معه ، وهو الضيفن الذي يجيء مع الضيف .
- 75 - الحفيظة: الغضب لحرمة تنتهك من حرملك ، أو جار ذي قرابة يظلم من ذويك ، أو عهد ينكث .
- 76 - منبعا الأخلاق والدين: ٥٥ .
- 77 - عندما تمّ تخطيط الأمصار قام على أساس قبليّ ، والقبائل التي سكنت تلك الأمصار الجديدة سكنتها من حيث هي قبائل ولم يتم اندماج بعضها ببعض لا في الجيوش ولا في الأمصار ، وإنما كانت كل قبيلة تؤلف كتلة مستقلة (انظر المصيبة القبلية وأثرها في الشعر الأموي ، إحسان النص ، ١٨٨) وهكذا خرج أبناء تلك القبائل "من قبيلة الصحراء إلى قبيلة المدينة" كما يقول الدكتور شكري فوصل (انظر المجتمعات الإسلامية: ١٠٢) .
- 78 - للتغير الاجتماعي: ٢١٩ .
- 79 - طبقات فحول الشعراء: ٢٤/١ .
- 80 - قال ابن عباس: "إذا سألتك عن شيء من غريب القرآن فالتمسوه في الشعر ، فإن الشعر ديوان العرب" (المزهر للسيوطي: ٣٠٢/٢) .
- - ذكرنا جميع المصادر التي أحلنا إليها ، لئتمكن القارئ من الرجوع إلى الشواهد ، إن أراد ذلك .